**المحاضرة الثالثة:**

**أثر الدعوة المحمدية في توجيه الحركة الشعرية في صدر الإسلام/ظهور النقد الأخلاقي**

**تمهيد:**

المراد بصدر الإسلام الفترة الزمنية الممتدة بين البعثة المحمدية المباركة وبين قيام الدولة الأموية والمتطلع إلى دراسة الحركة النقدية في هذه الحقبة يستوجب عليه أن ينعم النظر في حال الأدب-و الشعر خاصة- في هذه الفترة التي شهدت ميلاد المجتمع الإسلامي الفتي،و عرفت انقلابا كبيرا في المفاهيم والقيم والتصورات.

و قد أحدث القرآن الكريم تأثيرا كبيرا في حياة العرب فقد نقلهم من البداوة إلى الحضارة، فتحضر بذلك أدبهم. و هو الذي وصلهم بالأمم و الثقافات الأخرى،فتحضر بذلك شعرهم و نثرهم. ومن آثار القرآن الكريم على اللغة العربية أنه جمع العرب على لهجة قريش التي نزل بها،و أنه حول العربية إلى لغة قويمة و حفظ لها أصولها و معالمها،كما أحل فيها معاني جديدة و ألفاظا جديدة عبرت عن هذه المعاني،و أنه كذلك هذب اللغة من الحوشية والألفاظ الغريبة. ([[1]](#footnote-2))

**موقف الإسلام من الشعر:**

لا تخلو حركة نقدية في أية أمة من الأمم، و في أي عصر من العصور من معايير تستند إليها في تقويم الأعمال الفنية و الحكم عليها بالجودة أو الرداءة، وهذه الموازين تمت بصلة قوية إلى ذوق الأمة و تصوراتها للحياة و إلى مجموع المعتقدات و التقاليد و الأعراف التي تؤمن بها. ([[2]](#footnote-3)) فقد كان للإسلام أثر كبير في تغيير قيمة الأشياء و الأخلاق في نظر العرب فارتفعت قيمة أشياء وانخفضت قيمة أخرى،وأصبحت مقومات الحياة في نظرهم غيرها بالأمس.

من المؤكد أن موقف الإسلام من القيم و المثل و الممارسات التي كانت سائدة في العهد السابق لم يكن موقفا واحدا،فقد استبقى ما كان يتماشى مع روحه،و هذب ما أمكن تهذيبه وألغى كثيرا مما كان متنافيا مع الصورة المثلى التي أرادها الله عز و جل للمجتمع. و إذا عدنا إلى القرآن الكريم فإننا نلاحظ أن الله عز و جل ينفي نسبة الشعر و الشاعرية إلى رسوله الكريم في أكثر من آية قال تعالى في سورة يس:" **و** **ما** **علمناه** **الشعر** **و** **ما** **ينبغي** **له**،**إن** **هو** **إلا** **ذكر** و**قرآن** **مبين**" **الآية:69 سورة:يس** و قال عز من قائل في سورة الصافات: "**ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر** **مجنون،بل جاء بالحق و صدق المرسلين"الآية:36**  وجاء في سورة الحاقة "**إنه لقول رسول كريم و ما هو بقول شاعر** **قليل ما تؤمنون، و لا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين**"**الآية:40/41** **سورة:الحاقة** وقوله تعالى في سورة الشعراء: "**والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون و أنهم يقولون ما لا يفعلون**"**الآية:223 سورة:الشعراء**، فهل في هذه الآيات دعوة إلى رفض الشعر و تحريمه؟ ثم ما ورد من أحاديث عن النبي الكريم بهذا الخصوص كما في قوله:"**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا**"([[3]](#footnote-4)) و قوله عليه الصلاة و السلام:" **لما نشأت بغضت إلي الأوثان و من بعدها الشعر**"([[4]](#footnote-5)).

يبدو من هذه الآيات و الأحاديث النبوية كما لو كان موقف الإسلام من الشعر موقف الرافض أو الكاره على الأقل. في البداية ينبغي أن ندرك بأن معجزة الرسول(ص) في القرآن معجزة بيانية من باب أول،فالعرب كانت لهم قدم راسخة في الفصاحة و البيان،فأراد الله أن يتحداهم في لغتهم لكن بنظم لا يمكن أن يجاروه، لذلك و حين بهرهم ما فيه من بيان شبهوه بأرقى شيء لديهم من حيث الفصاحة والبيان و هو الشعر،و ألصقوا صفة الشاعرية بحامله إليهم يقول ابن رشيق:" ألا ترى كيف نسبوا النبي صلى الله عليه و سلم إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم؟ فقالوا:هو شاعر لما في قلوبهم من هيبة الشعر و فخامته ..." ([[5]](#footnote-6))

من هنا يتضح إن المراد من هذه الآيات ليس معاداة الشعر بوصفه شكلا من أشكال التعبير الفني والدعوة إلى التخلي عنه، وليس فيها أيضا ما يغض من الشعر من حيث هو شعر، وليس في نفيه عن الرسول (ص) غض لقيمة الشعر، أوتقليل من شأنه،بل في نفيه عنه دلالة إعجاب أشد،فقد نفى الله عن نبيه الشعر الذي عرف بين العرب بقوة التأثير،و بلاغة الدلالة و القدرة على الفصاحة ([[6]](#footnote-7))،قال ابن رشيق:"و لو إن كون النبي صلى الله عليه وسلم غير شاعر غض من الشعر،لكانت أميته غضا من الكتابة، و هذا أظهر من أن يخفى على أحد"([[7]](#footnote-8))إن هذه الآيات الكريمة لا تذم الشعر من حيث هو شعر،فالخطاب فيها يخص الشعراء، وليس الشعر في حد ذاته فهي تنكر على الشعراء فيما يقولون الكذب و إغواء الناس بالأباطيل من الكلام وعليه يكون الشعر المنبوذ في الإسلام هو الذي يحيد عن الحق... ولذلك يستثني المولى -عز و جل- صنفا من الشعراء فيقول:" **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات و ذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعدما** **ظلموا،و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**"**الآية:227 سورة:الشعراء**. فالتعنيف و الذم في الآيات التي سقناها لا ينسحب على الشعراء مطلقا.

و الرسول(ص) إذ يذم الشعر لا يذمه على إطلاقه، و إنما يذم نوعا خاصا منه،هو ذلك الشعر الذي يجافي روح الإسلام و تعاليمه، و يباعد بين العرب،و يفرق كلمتهم و يذكي فيهم روح العصبية بكل أنواعها وآثامها. ([[8]](#footnote-9)) وينسب للنبي(ص) كلام كثير يكشف عن تأثره بالشعر وإعجابه به و تقديره لقيمته وإدراكه العميق لمكانته في نفوس العرب يقول عليه الصلاة والسلام:" **إن من الشعر لحكمة و إن من البيان لسحرا**" ([[9]](#footnote-10))فمن المستبعد إذا أن يحرم الرسول(ص) الشعر أو "يدعو إلى تعطيل ملكة من الملكات الفنية التي عرف بها قومه، ويقضي على الفن الذي نبغ فيه العرب،و قد عرف بعد أثره في نفوسهم كما عرف بعد أثره في نفسه و في نشر دعوته، ولكن غاية ما يقال في هذا الشأن أنه عمل على توجيه تلك الملكة توجيها جديدا يبعد بها عن جاهليتها و ضلالها القديم.

و يبدو موقفه -عليه الصلاة و السلام- من الشعر أشد وضوحا، تنويهه بشعراء الدعوة أمثال:حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة و كعب بن مالك. و تذكر له في هذا المجال أقوال فيها دعوة صريحة لهم للرد على شعراء المشركين قال للأنصار:"**ما يمنع** **الذين نصروا الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم**"([[10]](#footnote-11)). و قد أثر عن الرسول(ص) بعض كلمات تعبر عن مفهومه للشعر من ذلك قوله:"**الشعر كلام** **من كلام العرب جزل تتكلم به في بواديها وتسل به الضغائن من بينها**" وقوله:"**إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن و ما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه**"**([[11]](#footnote-12))** و قوله:" **إنما الشعر كلام فمن الكلام** **خبيث و طيب"([[12]](#footnote-13)).**

إذا فقد جاء موقفه(ص) من الشعر متسقا غاية الاتساق مع موقف القرآن الكريم منه فهو يعرف ما للشعر من مكانة في حياة العرب و قلوبهم،و لهذا لم يرد أن تتخلى العرب عن الشعر،و هو القائل:"لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين"،و لكنه أراد أن يتجه إلى إقرار الإسلام و مبادئه في النفوس،و يتخلى عن كل ما يتعارض مع مبادئ الدين العقدية و الخلقية، وأن يكون سلاحا يدرأ به هجوم المشركين على الإسلام بما لهم من ألسنة حداد**([[13]](#footnote-14))**.

و من هنا يمكن حل هذا التناقض الظاهري في موقف الرسول(ص) من الشعر فهو لم يرفض الشعر جملة، ولم يرفضه على إطلاقه،فهو حين يرفضه إنما يرفض منه ما يتعارض مع الإسلام و مبادئه الروحية،أو يذكي روح العصبية في نفوس العرب التي أراد الإسلام أن يقضي على مآثمها في المجتمع الإسلامي الجديد،و هو حين يقبله لا يقبل منه إلا ما يحث على الفضائل و مكارم الأخلاق**([[14]](#footnote-15))**.

**نماذج من النقد النبوي:شرح و تحليل:**

**1-**أنشد النابغة الجعدي رسول الله(ص) قوله:

**أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى و يتلو كتابا كالمجرة نيرا**

**بلغنا السماء مجدنا و جدودنا و إنا لنرجو فوق ذلك مظهرا**

فقال رسول الله(ص):"إلى أين أبا ليلى؟" فقال النابغة :إلى الجنة. فقال الرسول(ص):"إن شاء الله".

و كأن الرسول(ص) بهذا التساؤل الكيس يشير إلى ما في ظاهر الكلام من استعلاء جاهلي، وإلى هذا أراد النبي الكريم أن ينبه.إذ أنكر –عليه الصلاة والسلام- هذا الفخر الذي يحمل في أطوائه نفحة الجاهلية،و أغضبه أن يعود شاعر مسلم إلى هذه المعاني البعيدة عن روح الإسلام الذي نهى عن التفاخر بالحسب و النسب. **([[15]](#footnote-16))**

1. أنشده حسان بن ثابت حين جاوب أبا سفيان بن الحارث قوله:

**هجوت محمدا فأجبت عنه و عند الله في ذاك الجزاء**

فقال له النبي الكريم:"جزاؤك عند الله الجنة يا حسان". و لما قال:

**فإن أبي و والده و عرضي لعرض محمد منكم وقاء**

قال له:"وقاك **الله** حر النار" فقضى له كما يقول ابن رشيق"بالجنة مرتين في ساعة واحدة و سبب ذلك شعره".

1. قال الرسول(ص): "أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد:"**ألا كل شيء خلا الله باطل**" فميزان الشعر عنده يتمثل في مدى مطابقته للحق و الصدق. و ما من شك في أن الرسول(ص) قد استمد ميزانه للشعر من تعاليم الإسلام.
2. جاء في دلائل الإعجاز أن الرسول (ص) قال يوما لحسان بن ثابت: "أنشدني قصيدة من شعر الجاهلية،فإن الله تعالى قد وضع عنا آثامها في شعرها و روايته" فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها علقمة بن علاثة جاء فيها:  
    **علقم** **ما** **أنت** **إلى** **عامر** **الناقص** **الأوتار و** **الواتر**

فقال النبي(ص):" يا حسان لا تعد تنشدني هذه القصيدة بعد مجلسك هذا"**([[16]](#footnote-17))** من هنا نجد هذا النوع من الهجاء حتى و لو كان قد قيل في الجاهلية إلا أن النبي الكريم يعرض عن سماعه.إن الذي جعل الرسول(ص) ينكر على حسان إنشاده هذه القصيدة هو ما فيها من سباب و شتم و طعن في الأعراض،فكأن الترخيص بإنشاد هذا النوع من الشعر فيه تشجيع للشعراء للعودة إلى الخوض في مثله**([[17]](#footnote-18))**.

1. أنشد النابغة الجعدي الرسول (ص) قوله:

**و لا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا**

**و لا خير في حلم إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا**

فأعجب الرسول (ص) بهذه الفكرة و قال: "لا يفضض الله فاك"

1. و أنشده كعب بن زهير قصيدته"بانت سعاد" فأعجب بها الرسول(ص) و بلغ من إعجابه بها أن صفح عن كعب،و خلع عليه بردته. و لما بلغ كعب في قصيدته إلى قوله:

**إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول**

أشار الرسول إلى الخلق أن يسمعوا شعر كعب بن زهير.و من ثم لم يكن عجبا أن يتحدث الناس في الشعر بمجلسه و أن يكثر اجتماع الشعراء به، وأن يعجب بالشعر إعجاب أصحاب الذوق السليم.

1. كان الرسول الكريم يعجب بقول طرفة:

**ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا و يأتيك بالأخبار من لم تزود**

\*أعجب النبي(ص) بشعر أمية بن أبي الصلت لالتقاء معانيه مع كثير من الأفكار الدينية،فقد قال (ص)" آمن شعره و كفر قلبه" و لم يخف إعجابه أيضا من الأفكار التي تضمنها قول عنترة:

**و لقد أبيت على الطوى حتى أنال به كريم المأكل**

فقال بشأنه :"ما وصف أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة"([[18]](#footnote-19))

**و يقول:"**إنها كلمة نبي"([[19]](#footnote-20)):

و بقول عدي بن زيد:

**عن المرء لا تسل و سل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي**

و يقول: "كلمة نبي ألقيت على لسان شاعر"

و سمع عائشة تنشد قول الشاعر:

**ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه يوما فتدركه عواقب ما جنى**

**يجزيك أو يثني عليك و إن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى**

فقال:"صدق يا عائشة،لا يشكر الله من لا يشكر الناس".

\*أنشد النبي(ص) قول سويد بن عامر:

**لا تأمنن و إن أمسيت في حرم إن المنايا بجنبي كل إنسان**

**فاسلك طريقك تمشي غير مختشع حتى تلاقي الذي منى ل كالماني**

**فكل ذي صاحب يوما مفارقه و كل زاد و إن أبقيته فان**

**و الخير و الشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان**

فقال النبي(ص) :"لو أدرك هذا الإسلام لأسلم"([[20]](#footnote-21))

10-سمع الرسول الكريم رجلا ينشد:

**إني امرؤ حميري حين تنسبني لا من ربيعة آبائي و لا مضر**

فقال له:"ذلك ألأم لك و أبعد من الله و رسوله.

11- كان الرسول(ص) يرى لأشعار أنصاره تأثيرا قويا على أعدائه،و من أقواله فيهم:"**هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل**"([[21]](#footnote-22)) و قال لحسان بن ثابت:"اهجهم-يعني قريشا- فوا لله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام.اهجهم و معك جبريل روح القدس.." ([[22]](#footnote-23))

\*من المتفق عليه بين نقاد الأدب و دارسيه أن الحديث النبوي ساعد على تهذيب الألسنة و تثقيف الطباع،و القضاء على عهد الحوشية و الغرابة والمعاظلة و التعقيد في البيان،و أحل محل ذلك السلاسة و السهولة و الرونق و الوضوح و سلامة الأسلوب و البيان([[23]](#footnote-24)).

إذا نظرنا إلى الحياة الأدبية في عصر الرسول(ص) نجدها في جملتها حياة ضيقة النطاق تتمثل غالبا في شعر الهجاء و المفاخرات و المدح.و لما كان النقد يتبع خطاه،فإنه كان يتحرك في هذا النطاق الضيق. ([[24]](#footnote-25)) و لهذا السبب يرى عبد العزيز عتيق أنه لا يمكن أن نجد حركة نقدية نشطة،و لهذا السبب نفسه يرى أنه لا عجب أن نجد تأثر النقد بالمثل الجديدة التي أتى بها الإسلام. ([[25]](#footnote-26)) و لا عجب تبعا لذلك أن يكون ميزان الشعر عند النبي(ص) يتمثل في مدى مطابقته للحق. و ما من شك في أن الرسول(ص) قد استمد ميزانه للشعر من تعاليم الإسلام. ([[26]](#footnote-27))

فالعرب لم يكفوا عن النظر في الشعر و المفاضلة بين الشعراء.و ظل نقدهم فطريا كما كان في العصر الجاهلي،نقدا يقوم على المفاضلة بين الشعراء بعيدا عن التعليل،لكن لعل أهم ما يميز النقد في هذه الفترة هو الوجهة الأخلاقية التي اتخذها، والحكم على الشعر بمدى مطابقته للحق و القيم الفاضلة.

من هنا نجد أن الإسلام اتخذ من الشعر مواقف تنسجم و طبيعة المرحلة التي شهدتها الدعوة فالمواقف الإسلامية لم تكن اعتباطية أو عشوائية،بل كانت منبثقة من ظروف الدعوة نفسها.فالدين الإسلامي ذم الشعر،و هون من قدره أول الأمر،حين كان الشعر يهاجم الدين،و ينتقص منه وحين كان المشركون يتهمون الرسول(ص) بأنه شاعر، وبأن قوله شعر. ([[27]](#footnote-28))

1. ()-ينظر:شوقي ضيف:تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي،ص:30 [↑](#footnote-ref-2)
2. ()- عبد القادر هني:دراسات في النقد الأدبي عند العرب ،1995،ص:88 [↑](#footnote-ref-3)
3. ()-ابن رشيق:العمدة،ج1،ص:18. [↑](#footnote-ref-4)
4. ()-نقلا عن عبد العزيز عتيق:تاريخ النقد الأدبي عند العرب:ص:43. [↑](#footnote-ref-5)
5. ()- ابن رشيق:العمدةج1،ص:52. [↑](#footnote-ref-6)
6. ()-مصطفى عبد الرحمن:في النقد الأدبي القديم عند العرب،ص:62 . [↑](#footnote-ref-7)
7. ()- ابن رشيق:العمدة،ج1،ص:21 [↑](#footnote-ref-8)
8. ()-عبد العزيز عتيق:تاريخ النقد الأدبي عند العرب،ص:44. [↑](#footnote-ref-9)
9. ()-الجرجاني عبد القاهر:دلائل الإعجاز،ص:13. [↑](#footnote-ref-10)
10. ()- أبو الفرج الأصفهاني:الأغاني،ج4،ص:142. [↑](#footnote-ref-11)
11. ()-ابن رشيق: العمدة،ج1،ص:15 . [↑](#footnote-ref-12)
12. ()- المرجع نفسه. [↑](#footnote-ref-13)
13. ()- نجوى صابر:النقد الأخلاقي أصوله و تطبيقاته،دار العلوم العربية ،بيروت،ط1، 1990 ص:16/17. [↑](#footnote-ref-14)
14. ()- المرجع نفسه،ص:20. [↑](#footnote-ref-15)
15. ()- عبد القادر هني:دراسات في النقد الأدبي عند العرب،ص:73 [↑](#footnote-ref-16)
16. ()- أبو الفرج الأصفهاني:الأغاني،ج15،ص:312. [↑](#footnote-ref-17)
17. ()-عبد القادر هني:دراسات في النقد الأدبي عند العرب ـص:72 [↑](#footnote-ref-18)
18. ()- أبو الفرج الأصفهاني:الأغاني،ج8،ص:240. [↑](#footnote-ref-19)
19. ()- ابن عبد ربه:العقد الفريد، طبعة مكتبة الرياض الحديثة،ج6/ص:105 [↑](#footnote-ref-20)
20. ()- المرجع نفسه،الصفحة نفسها. [↑](#footnote-ref-21)
21. ()-ابن رشيق:العمدة،ج1،ص:18. [↑](#footnote-ref-22)
22. ()-المصدر نفسه:الصفحة نفسها. [↑](#footnote-ref-23)
23. ()-ينظر مصطفى عبد الرحمن:في النقد الأدبي القديم عند العرب،ص:57 [↑](#footnote-ref-24)
24. ()- عبد العزيز عتيق:تاريخ النقد الأدبي عند العرب،ص:47. [↑](#footnote-ref-25)
25. ()-ينظر المرجع نفسه،الصفحة نفسها. [↑](#footnote-ref-26)
26. ()-ينظر المرجع نفسه،ص:49/50. [↑](#footnote-ref-27)
27. ()- فايز ترحيني:الإسلام و الشعر،دار الفكر اللبناني،بيروت،ط،19901،ص:87. [↑](#footnote-ref-28)